الثقافة الغربية وإشكاليات المرأة

يرتبط الواقع الحالي الذي تعيشه مجتمعاتنا ارتباطاً وثيقاً بالعولمة وتداعياتها على أكثر من مستوى سياسي واجتماعي وغيره. وخصوصاً ما يرتبط منه بالجانب الاجتماعي، حيث إنّ الانفتاح الإعلامي وتقنيات الاتصال والتواصل جعلا من اليسير نقل تجارب الآخرين وثقافاتهم وأنماط سلوكهم ومعيشتهم إلى مجتمعاتنا بغتة.

ولا شك في أنّ للغرب ثقافته الخاصة، وقد تسلّلت إلى مجتمعاتنا حيث إنّ الغرب من جهة يسعى إلى فرض قيمه الثقافية علينا ولو بالقوة، ومن جهة ثانية نرى بأنّ البعض يتأثر بالقيم الثقافية الغربية بشكل التقاطي بحيث يعيش حالة من الخواء الثقافي والفراغ الفكري، أو يشعر بالدونية التي تجعله يمارس التقليد الأجوف لكل ما تعرضه الشاشات ووسائل الإعلام باعتبار كونه بضاعة ثقافية مستوردة.

يمكن القول إنّ المشكلة متعددة الأسباب، فلو لم تجد القيم الغربية أرضية صالحة لما أمكن لها أن تأخذ محلاً في مجتمعاتنا. وقد يقول قائل إنّ تلك القيم تراود أهواء الإنسان وتدفعه إلى الارتباط بالدنيا. من هنا تجد لها مكاناً خصباً بيننا، لكنّ هذا الموضوع برغم صحته فإنّه ليس السبب الوحيد؛ لأنّ هناك في المقابل اتجاهات إسلامية تدّعي انتسابها إلى الإسلام وهي تمارس سلوكيات أبعد ما تكون عن الإسلام، وهذا ما ساهم في تشويه الدين.

كما إنّ هناك اتجاهات إسلامية أو جهوداً ما، يبذلها بعض المتعلمين أو المثقفين الإسلاميين، وهي تدّعي تكوين رؤى إسلامية تنسبها إلى الدين، ولا يستبعد أن تكون هذه الرؤى قد تأثرت في تكوينها بظروف اجتماعية ما، أو لربما الجانب الشخصي؛ أي تلعب الطبيعة الشخصية دورها في ذلك، أو لربما إنّ عدم التعمق في فهم الدين والخطاب الديني قد أدى إلى تلك النتيجة.

ولا شك في أنّ رؤية إسلامية غير صحيحة، أو مشوهة، أو ناقصة سوف تؤدي إلى نتائج غير محمودة العواقب على المستوى الاجتماعي، كما إنّ سوء تطبيق المتديِّنين أنفسهم أو صدور سلوكيات غير صحيحة منهم تسهم في تلك النتائج.

وبناءً على ما تقدم يمكن القول إنّ مجموعة أسباب متعددة تسهم في أن تجد القيم الغربية بيئة مناسبة لها في مجتمعاتنا.

ولا شكّ في أنّ أهمية الحديث عن الأسباب التي توفّر بيئة مناسبة للثقافة الغربية تكمن في أنّه يرشدنا إلى الموارد التي يجب أن نعالج الخلل فيها حتى نقفل الباب على المسارب، ونقاط الضعف التي تتسلل منها الثقافة الغربية إلى مفاهيمنا وسلوكياتنا.

فمن أهمّ المواضيع التي تستغلّها الثقافة الغربية لتفرض قيمها ومفاهيمها علينا؛ موضوع المرأة وما يرتبط بها من قضايا، وتسعى من خلال ذلك إلى وضع الثقافة الإسلامية ككلّ في قفص الاتهام، بالتالي تصل إلى توهينها

وإضعافها، وهي تسعى من جهة ثانية إلى فرض قيمها ومفاهيمها؛ لأنّ السيطرة الثقافية تمهد للسيطرة السياسية والاقتصادية وغير ذلك. ومن هنا فإنّ هذا الهجوم الثقافي على الإسلام من خلال قضية المرأة ليس هجوماً بريئاً. نعم إذا كان هناك ممارسات خاطئة لبعض المسلمين فمن الطبيعي ألاّ تسلم من النقد، لكن كلامنا هو في محاولة فرض القيم الغربية من جهة، ورفض القيم الإسلامية في موضوع المرأة من جهة ثانية. وخصوصاً إذا كان ذلك قائماً على أساس موقف مسبق من الإسلام ومفاهيمه وقيمه.

نحن لا ننتظر من الثقافة الغربية أن تبدي إعجابها بكل المفاهيم والقيم الإسلامية، لكن من جهة أخرى ليس من الإنصاف رفض كل ما هو إسلامي، أو أن يكون رفضها لبعض القيم الإسلامية في إطار هجوم ثقافي مركز على الإسلام وقيمه ومفاهيمه.

من هنا كان حقاً على المرأة في مجتمعاتنا الإسلامية أن تكون على درجة من الوعي والثقافة تسمح لها أن تعرف موقعها من كل المجريات الثقافية، وألاّ تكون مجرد متلق سطحي وفارغ لكل ما يأتي إليها، بل يجب أن يكون مستواها الثقافي بحيث تستطيع أن تميز الصحيح من الخطأ، بما ينسجم مع معاييرها الثقافية وما لا ينسجم معها، ما يسهم في توفير سعادتها ومستقبلها الدنيوي والأخروي، وما يؤدي إلى عكس ذلك؛ فالمرأة المسلمة عليها واجب ثقافي مميّز، خصوصاً في عصرنا الحالي الذي شهد تنوعاً ثقافياً، وأكثر من اختراق ثقافي يجعل من الصعب أحياناً تمييز المفردات الثقافية، إلاّ على الذين يملكون ذلك المستوى الثقافي المتقدم، خصوصاً عندما نلحظ أنّ أكثر من هجمة ثقافية تحاول أن تلبس لبوس العصرنة والحداثة، وأن تأخذ طابعاً برّاقاً؛ ليعمل على اجتذاب الناس إلى مفرداته ومفاهيمه، وهذا ما نلاحظه في عصرنا الحالي على وجه الخصوص.

وهنا نستطيع القول إنّ الإسلام يؤمن بالحداثة والعصرنة، بل هو يعمل على مواكبة كل التطورات والمتغيرات العصرية، لكنّ هذا لا يلغي مقولة ثبات الدين، وما نعنيه بثبات الدين ثبات القيم الدينية والمفاهيم الدينية، كذلك أحكام الدين، ومنشأ ثبات تلك القيم والأحكام أنّها تحاكي فطرة الإنسان التي لا تتبدل، أما مساحة التغيير فهي ترتبط بجانب آخر له علاقة بالجانب الكيفي، وهو لذلك يدخل في إطار العرف، والأعراف هي التي تحدد تلك المصاديق؛ أي هي مصاديق عرفية.

لكن ما نريد تأكيده هو أن تكون تلك الحداثة حداثة أصيلة، وأن تكون تلك العصرنة عصرنة قائمة على أساس القيم الإسلامية والأصول الإسلامية، وأن تكون مستوحاة من الإسلام، وإلاّ سوف تكون تلك الحداثة حداثة هجينة أو لقيطة، أو هي حداثة غربية يراد إعطاؤها طابعاً إسلامياً حتى تستطيع النفوذ إلى مجتمعاتنا وثقافتنا.

من هنا عندما نسمع من كثيرين الميل إلى التغيير والتحديث والعصرنة، فنحن لا نخالف هذا التوجه، لكن كل ما نريده أن تكون هذه العملية عملية أصيلة قائمة على أساس مفاهيمنا ومعاييرنا وقيمنا، فإذا كنا نعتقد بقدرة الإسلام على مواكبة العصر فما علينا إلاّ أن نقرأ الإسلام قراءة واعية وعميقة تسمح لنا أن نعرف ما هو أصيل في

الإسلام، وما يرتبط منه بالجانب الظرفي والعرفي حتى لا تختلط علينا الأمور، ولا تتيه عنّا الحقائق فنعدّ ما هو أصيل دخيلاً، وما هو دخيل أصيلاً، عندها نفتقد أصالتنا ونتلهى بالقشور عن اللّب، فيكون الخلل في فهمنا نحن لا في نظرة الآخرين إلينا.

وهذه الحقيقة يجب أن نؤكدها دائماً حيث إنّ ديننا برغم كونه دين الفطرة، وبرغم كون شريعتنا الشريعة السّمحة السّهلة، لكن هذا لا يلغي حقيقة كونه ديناً عميقاً يحتاج إلى فهم عميق ودقيق، وإلى رؤية شاملة وبصيرة نافذة، حتى نستطيع أن نعي حقائقه، ونهتدي معالمه، وحتى يمكن لنا أن نصل إلى معارف سليمة وصحيحة حول مجمل القضايا التي ترتبط بالعصر والدين ومختلف شؤون المجتمع.

وهذا واجب الإسلاميين أنفسهم وبالتحديد مؤسساتهم العلمية والفكرية والثقافية التي يجب عليها أن تعمل على صناعة العديد من المعارف الإسلامية التي تعالج كثيراً من القضايا المطروحة، وتجيب عن العديد من الأسئلة، وتعدد الإجابات على كثير من الإشكاليات القائمة.

إنّ أبرز تلك القضايا التي أصبحت مدخلاً لكثير من الإشارات والتساؤلات قضية المرأة وما يرتبط بها –كما أشرنا سابقاً– ونحن لا ننكر أنّ الكثير من الممارسات الخاطئة التي يقوم بها المسلمون، بل وحتى الأفكار الخاطئة التي يدلي بها البعض ممّن ينتمي للإسلام، يسهم في تشويه صورة الإسلام، ويعطي حجة لكثير من الغربيين لاتهام الإسلام بالتخلف والرجعية وعدم مماشاة العصر والحداثة.

إنّ الإسلام الطالباني –على سبيل المثال– الذي يحجر على المرأة العلم والتعلم، وتحصيل الثقافة، ويريد منها أن تكون جليسة البيت؛ لأنّها يجب ألاّ تخرج من بيتها، يمثل نوعاً من الفهم الخاطئ للإسلام، باعتبار أنّ الإسلام يريد من المرأة أن تستثمر طاقاتها وإمكانياتها في الميادين والمجالات الصحيحة، وهو يريد أن تكون عنصراً فاعلاً ومنتجاً، ولا يريد أن يجمد طاقات المرأة، بل يريد صرف تلك الطاقات في المورد الصحيح؛ لذلك هو يريد من المرأة أن تتعلم، وأن تنال المستويات الثقافية المتقدمة والراقية، وهو وإن كان يحث المرأة على أن تعطي الأولوية لبيتها وأسرتها، لا لأنّه يريد حبسها أو تجميد طاقاتها، بل لأنّه يريد أن يكون بيتها ميدان جهادها وعملها وفاعليتها على مستوى صناعة الإنسان وبناء الأسرة وتربية الأبناء وحسن التبعل وإدارة المنزل والقيام بالواجبات الأسرية بشكل صحيح وسليم، قائم على أساس العلم والوعي والثقافة التي تسهم في بناء أسرة سليمة وحياة زوجية سعيدة، وإنتاج أطفال صالحين يسهمون في بناء المجتمع، وتحقيق النجاحات، واجتراح الإنجازات، والفضل في ذلك يعود بشكل أساس إلى تربية الأم وصبر الزوجة وعطاء المربية.

لذا نقول إنّ لكل قضية ومسألة إسلامية فلسفتها الخاصة وعمقها المعرفي والفكري، الذي يحتاج إلى عملية غوص خاصة، وإلى رؤية شمولية غير مجتزأة تستطيع أن تبرز قوة الإسلام المعرفية، وعمق أفكاره وصوابية ثقافته، وملاءمتها لمصالح الإنسان الواقعية سواء ما كان منها مرتبطاً بالجانب الدنيوي أو مرتبطاً بالجانب

الأخروي.

إنّ قضية قوامية الرجل على المرأة ليست ميزة تفاضلية فيما يرتبط بالقرب من الله تعالى، بل ليست إلاّ صيغة عقلانية إدارية ترتبط بتنظيم الاجتماع العائلي، وهي ليست إلاّ مسؤولية إضافية ملقاة على عاتق الرجل.

أما موضوع الحجاب فليس إلاّ ستراً لجنوح الشهوة والغرائز لمصلحة سفور العقل والقيم والفضائل، والحجاب لا يقصي المرأة عن ساحة المجتمع؛ لذا نقول إنّ فلسفة الحجاب ترتبط بجوهر إنسانية المرأة ورقيّها المعنوي بما هو دعوة إلى كشف الفضيلة وستر الرذيلة، وبما هو دعوة إلى سفور العقل وحجاب الشهوة والبدن.

كذلك الأمر عندما نأتي إلى فلسفة الزواج المتعدد الذي أباحه الإسلام للرجل، الذي هو في جوهره تطبيقاً لمقولة العدل الاجتماعي على مستوى توفير الفرصة لكل امرأة أن يكون لها زوج ومنزل وأولاد، وأن تمارس دورها كأم وزوجة ومربية، إنّ حقيقة الزواج المتعدد هي شمول نعمة الأمومة لأكبر عدد من النساء، وتوفير فرصة الزوجية لأكبر عدد من النساء، وعدم بقاء أعداد كبيرة من النساء في بيوت آبائهنّ، بل دخولهن في بيت الزوجية مكرمات لينشئن حياتهنّ الخاصة بهنّ.

كذلك الأمر فيما يرتبط بالعديد من المفردات الإسلامية مورد النقاش والجدل؛ كالزواج المنقطع وقضية الطلاق وحضانة الأولاد وما سوى ذلك.

إنّ كل ما تقدم يدعونا إلى تطوير رؤيتنا لكل القضايا المطروحة، وعدم الجمود في تكوين وعينا وثقافتنا، وهنا تحتل المرأة موقعاً أساسياً في ذلك من حيث الفعل الثقافي والتوجه الثقافي.

وهذا يعني الدعوة إلى تكوين حداثة إسلامية في موضوع المرأة وقضاياها، لكنّها حداثة أصيلة قائمة على أساس رؤية منهجية تهدف إلى بناء فكر سوي إسلامي أصيل، وإلى تطوير الوعي الإسلامي النسوي.

وهنا تقع المسؤولية الأساس على المؤسسات الإسلامية النسوية حيث لا يكفي فقط العمل على صناعة وإنتاج الأفكار، بل لا بد من العمل على سبيل هذه الأفكار وتسويقها من خلال منابر إعلامية قوية وجادة تهتم بشؤون المرأة وشجونها، وجميع قضاياها وتعمل على تقديم ما هو جديد من أبحاث جادة ومفيدة، وتتجنب الاجترار والتكرار حتى تتحوَّل كل تلك المفردات الثقافية المفيدة والهادفة إلى بضاعة ثقافية في متناول جميع الذين يريدون الوصول إلى ما هو جديد ومفيد في عالم الفكر والثقافة والمعرفة.

لكن يبقى أن تمتلك كل امرأة الميزان والمعيار حتى تميز في عصر العولمة الثقافية بين ما هو أصيل وما هو دخيل؛ لتبني المرأة نفسها بناءً صحيحاً وسليماً كما أراده الله تعالى، وبلغه رسوله وأهل بيته (صلوات الله عليهم).